

القصور في طلب العلم

أسبابه .. علاجه

ومعه ..

ذم اللحن في الكلام



تأليف

أبي أنس أشرف بن يوسف بن حسن

القصور في طلب العلم

أسبابه - علاجه

ومعه

ذم اللحن في الكلام

تأليف

أبي أنس أشرف بن يوسف بن حسن

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

الطبعة الأولى

رقم الأيداع	٢٠٠٨ / ٢٢٠٠٧
-------------	--------------

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

إِن الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضِلِّهِ فَلَا هَادِيَ لَهُ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ، وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] .

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ

لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿ [الأحزاب : ٧٠ - ٧١] .

أما بعد ؛ فهذه إخواني في الله كلمات لسلفنا الصالح ، كنتُ
قد جمعتها منذ فترة من مصادر عدة ، رأيتُ فيها علاجاً لداءٍ عُضَالٍ
انتشر بين أبناء الأمة الإسلامية انتشاراً واسعاً ، فأوردتها المهالك ، إنه
داءٌ ترك تعلم العلم الشرعي .

ولقد أخبر النبي ﷺ أن ذلك سيقع ، وأنه من أشراط الساعة ،
فقال ﷺ ، فيما رواه البخاري ومسلم رَجِمَهُمَا اللَّهُ ، من حديث
أنس رضي الله عنه : « إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُزْفَعَ الْعِلْمُ ، وَيُظْهَرَ
الْجَهْلُ » .

إخواني في الله ، لقد باتت العلوم الشرعية تُشكُو إلى ربّها من
قلة طالبيها ، تُشكُو إليه سبحانه من انصراف عامة الناس عنها ، وعن
تعلّمها ، وكأنّ الله سبحانه قد نهى عن طلبها ، ولا حول ، ولا قوة
إلا بالله .

اغْتَبَرُوا - إخواني في الله - هذه الكلمات صيحات تحذير

وإنذار، وترغيب وترهيب؛ ترغيب في تحصيل العلم النافع، وترهيب من ترك تعلم العلم الشرعي.

والله، إني لأحزن أشد الحزن عندما أجد أبا لي، أو أخا، أو ابناً، يجهل أبسط الأمور الشرعية.

وإن الحزن ليزداد عندما أجد عالماً مفسداً مضلاً، يخرج إلى الناس، ويلعب بعقولهم وبدينهم، وكأنه يخاطب أنعاماً، لا أناساً، فتجده يقول فيما أجمعت الأمة على تحريمه: هذا حلال. ويقول فيما أجمعت الأمة على حله: هذا حرام.

والسبب بلا شك هو: أن أكثر الناس ليس عندهم شيء من العلم يدفعون به قوله، بل هم في غفلة من هذا.

والله، لولا ما انتشر من الجهل بين الناس لما استطاع أحد من هؤلاء المفسدين أن يثبوا سمومهم بين أفراد الأمة، ولكنهم لما رأوا الأرض خصبة لاستقبال أفكارهم الشيطانية بثوها.

أخي في الله، اقرأ هذه الكلمات بتدبر، ثم عاهد الله سبحانه بعدها على أن تكون طالباً للعلم الشرعي حق طالب، حتى تكون

من المنافحين عن دين الإسلام .
وأخيرًا فإني أَتَقَدَّمُ بالشكرِ والثناءِ إلى رفيقةِ عُمرِي زَوْجِي
الْحَنُونِ أم أنسٍ على ما تَبَذَّلُهُ معي من مجهودٍ في إيصالِ العلمِ النافعِ
إلى إخواني طلبةِ العلمِ ، فجزاها اللهُ خيرًا كثيرًا ، وجَعَلَ ذلك في
مِيزانِ حسناتها .

والله أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ عملي هذا لوجهه خالصًا ، وَأَنْ يَنْفَعَنِي
به وإخواني ، إِنَّهُ جَوَادٌ سَمِيعُ الدَّعَاءِ .

أبو أنس أشرف بن

يوسف بن حسن

٣٧١٤٢٥٨٣ - ٣٧١٢١٣٩١

العلم الشرعي هو أشرف مطلوب

أخي طالب العلم، أخي المُقَصِّر في طلب العلم، اعلموا جميعاً أن أشرف مطلوب هو علم الشرع، ولم يطلب النبي ﷺ من ربه أن يزيدَه من شيء سوى العلم، قال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

إن العلم هو أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجدَّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه، واقتناه الكاسب.

إني لما رأيت كثيراً من إخواني تكاسلوا عن طلب العلم الشرعي، وتركوه جانباً، وانصرفوا إلى طلب أمور فانية، لا تنفعهم شيئاً، ولا تُجدي عنهم، كتبت هذه الورقات القليلة؛ ليستيقظ بها من أراد الله به خيراً.

اعلم أولاً أخي - رحمك الله - أن علم الشريعة ليس من الأمور التي هي خاضعة لمشية العبد، إن شاء طلبه، وإن شاء تركه، بل إن من علوم الشرع ما هو فرض عَيْن على كل مسلم ومسلمة، ولا يحل لمسلم أبداً تركه، ولا التفريط فيه، فإن فرط فيه

فهو آثم ، ولا شك ، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

ونقل ابن عبد البر رحمه الله في كتابه « جامع بيان العلم

وفضله » : إجماع أهل العلم على أن من علوم الشريعة ما هو فرض عين ، فلا يحل التفريط في تعلمه ، فمن فرط في تعلمه فهو آثم ، ولا شك ، وهو معرض لعقوبة الله ، ولا شك .

ومن ذلك : العلم بأركان الصلاة وشروطها ومستحباتها

وواجباتها ، والعلم بما يفسد الصيام ، وبما لا يتم الصيام إلا به .

ناهيك عن وجوب تعلم كل مسلم ومسلمة عيناً ما يتعلق

بتوحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ... إلى غير ذلك من الأمور التي لا يحل التفريط فيها أبداً بحال .

ولهذا كان سفيان الثوري رحمه الله إذا لقي شيخاً سألته : هل

سمعت من العلم شيئاً ؟ فإن قال : لا . قال : لا جزاك الله عن الإسلام خيراً .

أخي طالب العلم : ما الذي يشغلك عن طلب العلم ؟

لا شك أن أكثر ما يصدُّ الطلبة في هذه الأيام عن طلب العلم الشرعي ، والاستمرار في تحصيله هو ثلاثة أشياء ، وهذا فيما رأيت وعاصرت من إخواني الذين رأيتهم يطلبون العلم ، وهذه الأشياء الثلاثة هي :

١- الكسل وضعف الهمة : نعم إن الكسل وضعف الهمة داء

انتشر في شباب الأمة الإسلامية أيما انتشار ، بل هو من أكبر الآفات المعطلة عن طلب العلم ، ولقد تنبَّه إلى هذا الداء سلفنا الصالح ، فهذا ابن الجوزي رحمه الله يقول : إنما البكاء على خسارة الهمم . وهذا الداء هو الذي دفع الحجاوي الحنبلي رحمه الله إلى أن يؤلف مختصرًا في الفقه ، فقال رحمه الله في بداية هذا المختصر معللاً ذلك : إذ الهمم قد قصرت ، والأسباب المثبطة عن نيل المراد قد كثرت . اهـ

ويقول الشاعر رحمه الله :

كلُّ داءٍ في سقوطِ الهمم
يَجْعَلُ الأحياءَ مثلَ الرممِ

فإن كنت أخي تريد أن تُعالج هذا الداء فأعلم :

أولاً : أن سقوط الهمة موت لصاحبه :

قال الشاعر :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله

وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم

وليس لهم حتى النشور نشور

وقال الآخر :

قد مات قوم وما ماث مكارمهم

وعاش قوم وهم في الناس أموات

وقال الآخر :

ومن فاته التعليم وقت شبابه

فكبر عليه أربعاً لوفاته

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : مات خزان المال ،

وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر .

ثانياً : أنصحك أن تنظر في سير سلفنا الصالح ، وكيف كانت

همُّهُمْ هَمَّةٌ عَلِيَاءُ :

* **عن أبي عُبَيْدٍ ، أنه كان يقولُ :** كنتُ في تصنيفِ هذا الكتابِ أربعينَ سنةً ، وربما كنتُ أَسْتَفِيدُ الفائدةَ من أفواه الرجالِ ، فَأَضَعُهَا في الكتابِ ، فَأَيُّتُ سَاهِرًا ؛ فَرَحًا مني بتلك الفائدةِ ، وأحذُكم يَجِئُنِي ، فَيُقِيمُ عندي أربعةَ أشهرٍ ، خمسةَ أشهرٍ ، فيقولُ : قد أَقَمْتُ الكثيرَ .

وقال ابنُ القاسمِ رَحِمَهُ اللهُ : أَفْضَى بِمَالِكَ طَلَبُ الْحَدِيثِ إِلَى أَنْ نَقُصَّ سَقْفَ بَيْتِهِ ، فَبَاعَ خَشَبَتَهُ .

وهذا يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ رَحِمَهُ اللهُ خَلَّفَ لَهُ أَبُوهُ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَأَنْفَقَهَا كُلَّهَا فِي تَحْصِيلِ الْحَدِيثِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ نَعْلٌ يَلْبَسُهُ .

وقال سليمانُ العامريُّ رَحِمَهُ اللهُ :

وَقَائِلَةٌ أَنْفَقَتْ فِي الْكُتُبِ مَا حَوَتْ

يَمِينُكَ مِنْ مَالٍ فَقُلْتُ : دَعِينِي

لَعَلِّي أَرَى فِيهَا كِتَابًا يَدُلُّنِي

لَا أَخْذُ كِتَابِي أَمِنًا بِيَمِينِي

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ حَاكِيًا عَنْ أَوَائِلِ طَلَبِهِ لِلْعِلْمِ : وَبَقِيْتُ

سنتين لم أَضَعُ جنبِي إلى الأرض .

وحكى البدر بن جماعة أنه سأل النووي رحمه الله ، عن نومه ، فقال : إذا غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظة ، وأنتبه .
وقال البدر : وكنت إذا أتيت أزوره يَضَعُ بعض الكتب على بعض ؛ ليوسّع لي مكاناً أجلس فيه .

وقالت زوجة الإمام الزهري رحمه الله : والله ، إن هذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحي من الأنصار ، إن كنت لأقيل ياب أحدهم ، ولو شئت أن يؤذن لي عليه لأذن لي عليه ، ولكن أبتغي بذلك طيب نفسه .

وعن أبي عبيد القاسم بن سلام أنه قال : ما دققت على محدث بابَه قط .

وفي رواية : ما أتيت عالماً قط ، فاستأذنت عليه ، ولكن صبرت حتى يخرج إليّ ، وتأولت قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا ﴾

حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٥﴾ [الحجرات: ٥] .

وقال سفيان الثوري: لا نَزَّالُ نَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مَا وَجَدْنَا مَنْ يُعَلِّمُنَا .

وقال ثعلبة: مَا فَقَدْتُ إِبْرَاهِيمَ الْحَرَبِيَّ مِنْ مَجْلِسٍ لَغَةٍ ، وَلَا نَحْوِ خَمْسِينَ سَنَةً .

وعن أبي زُرْعَةَ الرَّازِيَّ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ يَأْكُلُ ، وَيُقْرَأُ عَلَيْهِ ، وَيَمْشِي وَيُقْرَأُ عَلَيْهِ ، وَيَدْخُلُ الْخَلَاءَ ، وَيُقْرَأُ عَلَيْهِ ، وَيَدْخُلُ الْبَيْتَ فِي طَلَبِ شَيْءٍ ، وَيُقْرَأُ عَلَيْهِ .

وقال ابن أبي حاتم: كُنَّا بِمَصْرَ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ ، لَمْ نَأْكُلْ فِيهَا مَرَقَةً ، نَهَارَنَا نَدَوْرُ عَلَى الشُّيُوخِ ، وَبِاللَّيْلِ نَنْسَخُ وَنُقَابِلُ ، فَأَتَيْنَا يَوْمًا أَنَا وَرَفِيقٌ لِي شَيْخًا ، فَقَالُوا : هُوَ عَلِيلٌ . فَرَأَيْتُ سَمَكَةً أَعْجَبَتْنَا ، فَاشْتَرَيْنَاهَا ، فَلَمَّا صِرْنَا إِلَى الْبَيْتِ حَضَرَ وَقْتُ مَجْلِسِ بَعْضِ الشُّيُوخِ ، فَمَضَيْنَا ، فَلَمْ تَزَلِ السَّمَكَةُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَكَادَتْ أَنْ تُثْنَيْنِ ، فَأَكَلْنَاهَا نِيَّةً لَمْ نَتَفَرَّغْ نَشْوِيهَا ، ثُمَّ قَالَ : لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجَسَدِ .

ووصف ابن ناصر الحافظ أبا الطاهر السلفي ، فقال : كأنه
شعلة نار في التحصيل .

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله يقول : أثقل
الساعات علي ساعة آكل فيها .

وقال عمار بن رجاء : سمعت عبيد بن يعيش يقول : أقمت
ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل ، كانت أختي تلقمني ، وأنا أكتب
الحديث .

وقال الشاعر :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وقيل للشعبي : من أين لك هذا العلم كله ؟ قال : بنفي
الاعتماد ، والسير في البلاد ، وصبر كصبر الحمار ، وبكور ككور
الغراب .

وقال بعض السلف : إذا أتى علي يوم ، لا أزداد فيه علماً يُقرُّبني
إلى الله تعالى فلا بُورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم .

وفي مثل هذا يقول القائل :

إذا مرَّ بي يومٌ ولم أَسْتَفِدْ هُدًى

ولم أَكْتَسِبْ علماً فما ذاك من عُمرِي

وقيل لبعض السلف : يَمِ أَدْرَكَتَ العلمَ ؟

فقال : بالمصباح والجلوس إلى الصباح .

وقال الخطيبُ البغدادي : وأفضلُ المذاكرة مذاكرة الليل ،

وكان جماعة من السلفِ يَفْعَلُونَ ذلك ، وكان جماعة منهم يَبْدَأُونَ

من العشاء ، فربما لم يقوموا حتى يَسْمَعُوا أَذَانَ الصبح .

ثالثاً من علاج قُصُورِ الهِمَّةِ : أن تَعْلَمَ أنك بحاجة شديدة

وماسية إلى العلم ؛ حاجة تَزِيدُ على حاجتك إلى الطعام والشراب .

قال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ : الناسُ إلى العلمِ أحوَجُ منهم إلى

الطعام والشراب ؛ فإن الناسَ يَحْتَاجُونَ إلى الطعام والشرابِ في اليومِ

مرةً أو مرتين ، وَيَحْتَاجُونَ إلى العلمِ بعددِ الأنفاسِ .

رابعاً من علاج قُصُورِ الهِمَّةِ : أن تَعْلَمَ أن العلمَ حمايةٌ لك من

الزَّلَلِ والعقائدِ الفاسدةِ .

قال الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ اللهُ : إن أقواماً ابْتَغَوْا العبادةَ ، وأضاعوا

العلم ، فخرَجُوا على أمة محمد ﷺ بأسيا فيهم ، ولو ابْتَغُوا العلمَ لَحَجَزَهُمْ عن ذلك .

خامسًا : أن تعلم أن العلم لن ينتظرك ، وأن ما فاتك من العلم اليوم فإنك لن تستطيع تحصيله غدًا ، وانظر معي - رحمك الله - إلى هذي السلف الصالح في الحرص على السماع من علماء زمانهم :

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يُزفع ، ورَفَعَهُ هلاك العلماء ، فوالذي نفسي بيده لَيُودَّنَ رجالٌ قُتِلُوا في سبيل الله شهداء أن ينعشهم الله علماء ؛ لما يرون من كرامتهم ، وإنَّ أحدًا لم يُولدَ عالمًا ، وإنما العلم بالتعلم .

وقال الحسن البصري : كانوا يقولون : موْتُ العالمِ ثُلْمَةٌ في الإسلام ، لا يسدُّها شيءٌ ، ما اختلف الليل والنهار .

ولما مات زيد بن ثابت رضي الله عنه قال ابن عباس رضي الله عنهما : يا هؤلاء ، مَنْ سرَّه أن يعلم كيف ذهاب العلم فهكذا ذهاب العلم ، وأئيم الله ، لقد ذهب اليوم علم كثير ، يموت الرجل

الذي يَعْلَمُ الشيءَ ، لا يَعْلَمُهُ غيره ، فيَذْهَبُ ما كان معه - وَيُشِيرُ إلى قبر زيد - ويقولُ : لقد دُفِنَ اليومَ علمٌ كثيرٌ .

وكان يَخْيِي بنُ مَعِينٍ شديدَ الحرصِ على لقاءِ الشيوخِ ،

والسماعِ منهم ؛ خشيةً أن يَفُوتوه .

وعن أبي أَمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عنه ، أنه قال : عليكم بهذا العلمِ قبلَ

أن يُقْبَضَ ، وقبلَ أن يُرْفَعَ .

وكان أحدهم يَخْزَنُ ، ويُصَيِّه المرضُ إذا فاتته شيءٌ من

العلمِ ، ومن ذلك أن شُعبَةَ ذَكَرُوا له حديثًا لم يَسْمَعْهُ ، فجَعَلَ يقولُ : واحْزَنَاهُ .

وكان يقولُ : إني لأَذْكَرُ الحديثَ ، فيَفُوتُنِي ، فَأَمْرُضُ .

وقال مالكُ بنُ يَخَامِرَ : لَمَّا حَضَرَتْ مُعَاذًا الوفاةُ بَكَيْتُ ،

فقال : ما يُنْكِيكَ ؟ قلتُ : والله ما أبْكِي على دُنْيَا كنتُ أُصِيبُهَا منك ، ولكن أبْكِي على العلمِ والإيمانِ اللذين كنتُ أَتَعَلَّمُهُمَا منك .

سادسًا : أن تَعْلَمَ أنك أيُّها المنصرفُ عن طلبِ العلمِ

الشرعي من حَمَقَاءِ النَّاسِ وَأَغْيَائِهِمْ ، عَافَانِي اللَّهُ وَإِيَاكَ مِنْ ذَلِكَ .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : النَّاسُ ثَلَاثَةٌ : عَالَمٌ رَبَانِيٌّ ، وَمَتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَّجٌ رَعَاعٌ ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رَكْنٍ وَثِيقٍ .

فَقَسَّمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّاسَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : عَالَمٍ رَبَانِيٍّ ، وَمَتَعَلِّمٍ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَّجٍ رَعَاعٍ .

وَالْهَمَّجُ مِنَ النَّاسِ - عَافَانِي اللَّهُ وَإِيَاكُمْ أَنْ نَكُونَ مِنْهُمْ - هُمْ حَمَقَاؤُهُمْ وَجَهْلَتُهُمْ ، الَّذِينَ لَا يُعْتَدُّ بِهِمْ .

وَوَصَفَهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَنَّهُمْ : أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ ؛ أَي : مَنْ صَاحَ بِهِمْ ، وَدَعَاهُمْ تَبِعُوهُ ؛ سِوَاءَ دَعَاهُمْ إِلَى هُدًى ، أَوْ إِلَى ضَلَالٍ ، فَإِنَّهُمْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالَّذِي يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ : أَحَقُّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ ؟

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : الْعَالَمُ وَالْمَتَعَلِّمُ فِي الْخَيْرِ شَرِيكَانِ ، وَسَائِرُ النَّاسِ هَمَّجٌ ، لَا خَيْرَ فِيهِمْ .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : اغدُ عالماً أو متعلماً ، ولا تغدُ بينَ ذلك ؛ فإنما بينَ ذلك جاهلٌ أو جهلٌ ، وإن الملائكةَ تَبْسُطُ أجنحتَها لرجلٍ غدا يَطْلُبُ العلمَ ، من الرضا بما يَصْنَعُ .

وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله : الناسُ عندنا أهلُ العلمِ ، ومن سواهم فلا شيءَ .

وقال معاذ رضي الله عنه في العلم : يُلْهَمُهُ السُّعْدَاءُ ، وَيُخْرِمُهُ الْأَشْقِيَاءُ .

وقال عمر رضي الله عنه : موْتُ ألفِ عابِدٍ أَهْوَنُ من موْتِ عالمٍ بصيرٍ بحلالِ اللهِ وحرامِهِ .

ووجه قول عمر رضي الله عنه : أن هذا العالمَ يَهْدِمُ على إبليسَ كُلَّ ما يَبْنِيهِ بعلمِهِ وإرشادِهِ ، وأما العابدُ فنفعُهُ مقصورٌ على نفسه .
ومضداق ذلك كله الذي وَرَدَ عن السلفِ في قوله ﷺ :
« الدنيا معلونة ، معلونٌ ما فيها ، إلا ذَكَرَ الله وما والاه ، وعالماً أو متعلماً » .

سابعًا : من علاج قصور الهمة في طلب العلم : أن تعلم علو منزلة ما تطلب :

فلقد حثَّ الله سبحانه في آيات كثيرة ، ورسوله ﷺ فيما لا يُحصى كثرة من الأحاديث ، وكذا السلف الصالح على طلب العلم ، ومن ذلك :

أولاً : من كتاب الله تعالى :

١- قال تعالى : ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] .

٢- وقال تعالى : ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] .

قال الحسن البصري : هي العلم .

قال ابن القيم رحمه الله : وهذا من أحسن التفسير ؛ فإن أجل حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح . اهـ

٣- وقال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] .

قال سماحة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرح العقيدة الواسطية: لو لم يكن من فضل العلم إلا هذه المنقبة لكفّت، حيث إن الله ما أخبر أن أحدا شهد بألوهيته إلا أولو العلم. اهـ

٤- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن القيم رحمه الله: وهذا حصر لخشيته سبحانه في أولي العلم.

٥- وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة إصابت الحق والعمل به، وهي العلم النافع، والعمل الصالح.

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في فضل العلم وأهله.

وأما السنة فحدث ولا حرج، فما أكثر الأحاديث الواردة في سنة النبي ﷺ في فضل العلم، ومنها:

١- قال رسول الله ﷺ: «الدنيا معلونة، ملعون ما فيها،

إلا ذَكَرَ اللهَ وما والاه ، وعالمًا أو متعلِّمًا .

٢- وقال رسولُ الله ﷺ : « مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ به من الهدى والعلمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكثيرِ ، أصاب أرضًا ، فكان منها طائفةٌ طيبةٌ ، قَبِلَتِ الماءَ ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ والعُشْبَ الكثيرَ ، وكان منها أجادِبٌ ، أَمْسَكَتِ الماءَ ، فَنَفَعَ اللهُ بها الناسَ ، فشَرِبُوا منها ، وَسَقَوْا ، وَرَعَوْا ، وَأَصَابَ طائفةٌ منها أخرى ، إنما هي قِيعانٌ ، لا تُمْسِكُ ماءً ، ولا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ في دينِ اللهِ ، وَنَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللهُ به ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَزَفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ به » .

قال سماحةُ الشيخِ الفوزان - حَفِظَهُ اللهُ - في شرحه على البلوغ ٩/١ بعد أن ذَكَرَ هذا الحديث : وأما الصنفُ الثالثُ فهؤلاء لا خيرَ فيهم ، ولا نَفْعَ فيهم للمسلمين ؛ فإنهم لم يَحْفَظُوا الأحاديثَ ، ولم يَتَفَقَّهُوا في دينِ اللهِ . اهـ

٣- وقال ﷺ : « مَنْ سَلَكَ طريقًا يَطْلُبُ فيه علمًا ، سَلَكَ اللهُ عز وجل به طريقًا من طرقِ الجنةِ ، وإن الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَها

رضًا لطالب العلم ، وإن العالمَ لَيَسْتَغْفِرُ له مَنْ في السماواتِ ، وَمَنْ في الأرضِ ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ ، وإن فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ ، وإن العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ ؛ وإن الأنبياءَ لم يُورَثُوا دينارًا ، ولا درهمًا ، ورَّثوا العلمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ .

وفي هذا فضيلةُ علماءِ هذه الأمةِ ؛ فإنهم إذا قاموا مقامَ نبيِّهم عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله ، وفي العبادَةِ ، وفي كلِّ الخصالِ ، يكونون حينئذٍ وارثي محمدٍ ﷺ ، ولو لم يَكُنْ من العلمِ إلا هذا لَكَفَى به فخراً ، وَلَكان الإنسانُ يَبْذُلُ فيه عقله وفكره وماله وحياته ، فخيرٌ لك من كلِّ الدنيا وما فيها أن تكونَ وارثاً لسيدِ المرسلين في هذه الأمةِ العظيمةِ .

٤- وقال ﷺ : « مَنْ يُرِدِ اللهَ به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدينِ » .

قال ابنُ حجرٍ رحمه الله في الفتح ١/ ١٦٥ : ومفهومُ الحديثِ أنَّ مَنْ لم يَتَفَقَّهْ في الدينِ - أي : يَتَعَلَّمْ قواعدَ الإسلامِ ، وما يَتَّصِلُ بها من الفروعِ - فقد حُرِمَ الخيرَ ، وقد أَخْرَجَ أبو يَغْلَى حديثَ معاويةَ من وجهٍ آخرَ ضعيفٍ ، وزاد في آخره : « وَمَنْ لم يَتَفَقَّهْ في

الدين لم يُبَالِ اللهُ به . والمعنى صحيح ؛ لأن مَنْ لم يَعْرِفْ أمورَ دينه لا يكونُ فقيهاً ، ولا طالبَ فقهٍ ، فيَصِحُّ أن يُوصَفَ بأنه ما أريدَ به الخيرُ ، وفي ذلك بيانٌ ظاهرٌ لفضلِ العلماءِ على سائرِ الناسِ ، ولفضلِ التفقهِ في الدينِ على سائرِ العلومِ . اهـ

وقال سماحةُ الشيخِ ابنِ بازٍ رحمه الله في مجموعِ فتاويه

١٠/٧، ٨: مَنْ حُرِمَ الفقهَ في الدينِ ، وصار مع الجَهْلَةِ والضالِّين عن السبيلِ ، المُعْرِضِينَ عن الفقهِ في الدينِ ، وعن تعلُّمِ ما أَوْجَبَ اللهُ عليه ، وعن البصيرةِ فيما حرَّمَ اللهُ عليه ، فذلك من الدلائلِ على أنَّ اللهَ لم يُرِدْ به خيراً ، وقد وَصَفَ اللهُ الكفارَ بالإعراضِ عما خُلِقُوا له ، وعما أُنذِرُوا به ؛ تنبيهاً لنا على أن الواجبَ على المسلم أن يُقْبَلَ على دينِ اللهِ ، وأن يَتَفَقَّهَ في دينِ اللهِ ، وأن يَسْأَلَ عما أَشْكَلَ عليه ، وأن يَتَبَصَّرَ ، قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣] . وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف: ٥٧] .

فمِنْ شأنِ المؤمنِ طلبُ العلمِ ، والتفقهُ في الدينِ ، والتبصُّرُ ، والعنايةُ بكتابِ اللهِ ، والإقبالُ عليه ، وتدبُّره ، والاستفادةُ منه ،

والعناية بسنة رسول الله ﷺ ، والتفقه فيها ، والعمل بها ، وحفظ ما تيسر منها ، فمن أغرض عن هذين الأصلين ، وغفل عنهما ، فذلك دليل وعلامة على أن الله سبحانه لم يرِدْ به خيراً ، وذلك علامة الهلاك والدمار ، وعلامة فساد القلب ، وانحرافه عن الهدى ، نسأل الله السلامة والعافية من كل ما يُغضبُه . اهـ .

وأما الآثار الواردة عن السلف في فضل العلم ، وفي تفضيلهم له على سائر العبادات والنوافل فمنها :

١- قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع ، أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على الإنفاق ، والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم ، والمال محكوم عليه ، ومحبة العلم دين يداؤ بها ، العلم يُكسب العالم طاعة في حياته ، وجميل الأُخْدُوثة بعد وفاته ، وصناعة المال تزول بزواله ، مات خزان المال ، وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة .

وقال أيضًا رضي الله عنه : كَفَى بِالْعِلْمِ شَرَفًا أَنْ يَدَّعِيَهُ مَنْ لَا يُحْسِنُهُ ، وَيَفْرَحُ بِهِ إِذَا نُسِبَ إِلَيْهِ ، وَكَفَى بِالْجَهْلِ ذِمًّا أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ مَنْ هُوَ فِيهِ .

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول إذا رأى الشباب يطلبون العلم : مرحبًا بينايع الحكمة ، ومصاييح الظلم ، جُدد القلوب ، جلس البيوت ، ريحان كل قبيلة .

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ؛ فَإِنْ تَعَلَّمَهُ لِلْخَشْيَةِ ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةً ، وَمُدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يُحْسِنُهُ صدقة ، وبذله لأهله قربة ، به يُعْرِفُ اللَّهُ وَيُعْبَدُ ، وبه يُوَحَّدُ ، وبه يُعْرِفُ الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ ، وَتُوصَلُ الْأَرْحَامُ ، وَهُوَ الْأَنْيَسُ فِي الْوَحْدَةِ ، وَالصَّاحِبُ فِي الْخُلُوعِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَاءِ ، وَالْمُعِينُ عَلَى الضَّرَاءِ ، وَالْوَزِيرُ عِنْدَ الْأَخْلَاءِ ، وَالْقَرِيبُ عِنْدَ الْغُرَبَاءِ ، وَمَنَارُ سَبِيلِ الْجَنَّةِ ، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَامًا ، فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً وَسَادَةً ، يُقْتَدَى بِهِمْ ، أدلة في الخير تُقْتَصُّ آثارُهُمْ ، وَتُرْمَقُ أفعالُهُمْ ، وَتَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خَلَّتِهِمْ ، وَبِأَجْنَحَتِهَا تَمْسُحُهُمْ ، يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ ، حَتَّى حِيتَانُ الْبَحْرِ

وهوائه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، والعلم حياة القلوب من العمى ، ونور للأبصار من الظلم ، وقوة للأبدان من الضعف ، يُلْغُ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكر فيه يُعَدِّلُ بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، وهو إمام للعمل ، والعمل تابعه ، يُلْهِمُهُ السَّعْدَاءُ ، وَيُحَرِّمُهُ الْأَشْقِيَاءُ .

وقال الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله : إن لم يكن الفقهاء العاملين أولياء الله فليس لله ولي .

وقال عمر رضي الله عنه : أيها الناس ، عليكم بالعلم ؛ فإن لله سبحانه رداءً يُحِبُّهُ ، فَمَنْ طَلَبَ بَابًا مِنَ الْعِلْمِ رَدَّاهُ اللَّهُ بِرَدَائِهِ ، فَإِنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا اسْتَعْتَبَهُ ؛ لَعَلَّا يَسْلُبَهُ رَدَاءَهُ ذَلِكَ حَتَّى يَمُوتَ بِهِ .

وجاء في الحديث : « مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ ، وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ ؛ لِيُحْيِيَ بِهِ الْإِسْلَامَ ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَةُ النَّبِيِّ » .

قال ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة ١ / ٣٩٦ :
وهذا - وإن كان لا يثبتُ إسناده - فلا يتعدُّ معناه من الصحة ...
فمن طَلَبَ الْعِلْمَ ؛ لِيُحْيِيَ بِهِ الْإِسْلَامَ ، فَهُوَ مِنَ الصَّادِّقِينَ ، وَدَرَجَتُهُ

بعدَ درجةِ النبوة . اهـ

وقال ابن عباس وأبو هريرة ، وبعدهما أحمد بن حنبل : تذاكرُ

العلم بعض ليلة أحب إلينا من إحيائها .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : العالم أعظم أجراً من

الصائم القائم الغازي في سبيل الله .

وقال أبو هريرة وأبو ذر رضي الله عنهما : باب من العلم

نَتَعَلَّمُهُ أَحَبُّ إلينا من ألف ركعة تطوُّعاً ، وباب من العلم نُعَلِّمُهُ -

عُمِلَ بِهِ ، أو لم يُعْمَلْ بِهِ - أَحَبُّ إلينا من مائة ركعة تطوُّعاً .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : لأن أعلم باباً من العلم في أمرٍ

أو نهى أحب إلي من سبعين غزوة في سبيل الله .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : مذاكرة العلم ساعة خير من

قيام ليلة .

وقال الحسن رضي الله عنه : لأن أتعلّم باباً من العلم فأُعلِّمَهُ

مسلمًا أحب إلي من أن يكون لي الدنيا كلها ، فأُنْفِقَهَا في

سبيل الله .

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : ليست عبادة الله بالصوم والصلاة ، ولكن بالفقهِ في دينه .

وقال وهب بن منبه : يَتَشَعَّبُ من العلم الشرف ، وإن كان صاحبه ذنيًا ، والعزُّ وإن كان مهينًا ، والقُرْبُ وإن كان قصيًّا ، والغنى وإن كان فقيرًا ، والمهابة وإن كان وضيعًا .

وقال سفيان بن عُيينة : أرفعُ الناسِ عندَ الله منزلةً مَنْ كان بينَ الله وبينَ عباده ، وهم الأنبياءُ والعلماءُ .

وقال أيضًا : لم يُعْطَ أحدٌ في الدنيا شيئًا أفضلَ من النبوة ، وما بعدَ النبوة شيءٌ أفضلُ من العلمِ والفقهِ . فقيل : عمَّن هذا ؟ قال : عن الفقهاءِ كلِّهم .

وعن سفيان الثوري والشافعي رحمهما الله قالا : ليس بعدَ الفرائضِ أفضلُ من طلبِ العلمِ .

وقال رجل لابنه : يا بُنَيَّ ، عليك بمجالسةِ العلماءِ ، واسْمَعْ كلامَ الحكماءِ ؛ فإن اللهَ لَيُخَيِّي القلبَ الميتَ بنورِ الحكمةِ ، كما يُخَيِّي الأرضَ الميتةَ بوابِلِ المطرِ .

والسبب الثاني من أسباب غُزُوفِ أكثر الطلبة عن طلب العلم

هو : انشغالهم بتحصيل الرزق والكد فيه .

فهذه هي الآفة الثانية ، والمرض الفتاك والعاثر الثاني عن طلب العلم الشرعي ، فتجد كثيرا من الناس يكون - والعياذ بالله - حمارا بالنهار ، جيفة بالليل ؛ من شدة طلبه للرزق ، فتجد مثل هؤلاء متى وجدوا إلى المال سبيلا بذلوا إليه قلوبهم وأفكارهم وحياتهم ، كل حياتهم .

وهذه - والله - آفة عظيمة ، ولقد رأيت - والله - الكثيرين بسببها يتزكون أشرف مطلوب ، يتزكون طلب العلم الشرعي ؛ جريا وراء أحسن مطلوب ؛ الدنيا .

فتجد مثل هؤلاء - وقد يكونون في بداية أمرهم من طلبة العلم - إذا وقعوا في أدنى وأقل مقارنة بين أمر من أمور الدنيا ، قد يكون من التفاهة بمكان ، وبين درس يحضرونه ، وينفعهم في آخرتهم انصرفوا إلى الدنيا ، فيهرّبون من الدرس ، وكأنهم قد فكوا من عقال ، وكأنهم كانوا في انتظار هذا الأمر ليفكوا من رق التعلم .

إخواني ، لماذا دائماً نُعْطِي الدِّينِيَّةَ في ديننا ، لماذا دائماً إذا وَقَعْنَا في مقارنة بين الدنيا والآخرة اخْتَرْنَا الدنيا ، لماذا لا نَخْتَارُ الدينَ مرةً واحدةً في حياتنا حتى نُحْصِلَ سعادة الدارين ؛ الدنيا والآخرة ؟

نعم ، ففي تحصيل العلم النافع والعمل به تحقيقُ السعادة الحقيقية ، يقول ابن القيم رحمه الله : السعادة الحقيقية هي سعادة العلم النافع ثمرته ؛ فإنها هي الباقية على تقلُّب الأحوال ، والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره ، وفي دُورهِ الثلاثة - أعني : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار - وبها يَرْتَقِي معارج الفضل ، ودرجات الكمال . اهـ

ولعلاج هذه الآفة الخطيرة - أخي طالب العلم - عليك أن تَعْلَمَ :

أولاً : أَنَّ مَنْ يَسِّرَ اللَّهُ لَهُ طريقَ العلم ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، وَلَمْ يُلْقِ لَهُ بالاً ، فَهُوَ مُعَرَّضٌ لعقوبةِ اللَّهِ سبحانه وَسَخِطُهُ وَعَذَابِهِ .

قال بعضُ السلفِ : مَنْ حَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ العلمَ عَذَّبَهُ عَلَى

الجهل ، وأشدُّ منه عذاباً مَنْ أَقْبَلَ عليه العلمُ ، فأذْبَرَ عنه ، وَمَنْ أَهْدَى اللهُ إليه علماً ، فلم يَعْمَلْ به .

ثانياً : واعلموا أيضاً أن هذا من الفتنة والاختبار ، والذِّكْرِ

الفِطْنُ هو الذي يَخْتَارُ دينه ، وَيُقَدِّمُهُ على دُنْيَاهُ ، وإن كانت هذه الدنيا قد أَتَتْه بأجملِ زينتها ، وانظروا إلى ما وَرَدَ عن سلفنا الصالح في تفضيلهم للعلم الشرعيِّ على سائر المَلَذَّاتِ ، والشهوات :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لَمَّا فُتِحَتِ المَدَائِنُ أَقْبَلَ

النَّاسُ على الدنيا ، وَأَقْبَلْتُ على عمرَ رضي الله عنه .

لَمَّا فُتِحَتِ البلادُ بسببِ الغزوِ في سبيلِ الله أَقْبَلَ كثيرٌ من الناسِ على الدنيا ، إلا أن ابنَ عباسٍ كان كَيِّسًا فِطْنًا ، فَأَقْبَلَ على عمرَ يَتَعَلَّمُ منه دينه .

قال الشاعر :

لكلِّ بني الدنيا مُرادٌ ومَقْصَدُ

وإن مُرادى صَحَّةٌ وفراغُ

لأَبْلُغَ في علمِ الشريعةِ مبلغًا

يكونُ به لي للجنانِ بلاغُ

وفي مثلِ هذا فليُتَافَسْ أُولُو النُّهَى

وحَسْبِي من الدنيا الغُرُورِ بلاغُ

فما الفوزُ إلا في نعيمِ مُؤَبَّدٍ

به العيشُ رَغْدٌ والشرابُ يُسَاعُ

وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه مقارنًا بينَ المالِ

والعلمِ : العلمُ خيرٌ من المالِ ، العلمُ يَحْرُسُكَ ، وأنتَ تَحْرُسُ

المالَ ، العلمُ يَزْكُو على الإنفاقِ ، والمالُ تَنْقُصُهُ النفقةُ ، العلمُ

حَاكِمٌ ، والمالُ مُحَكَّمٌ عليه ، ومحبةُ العلمِ دينٌ يُدَانُ بها ، العلمُ

يُكْسِبُ العالمَ طاعةً في حياته ، وجميلَ الأُخْدُوثةِ بعدَ وفاته ،

وصنِيعَةُ المالِ تَزُولُ بزواله ، ماتَ خُزَّانُ المالِ ، وهم أحياءُ ،

والعلماءُ باقون ما بَقِيَ الدهرُ ، أعيانُهم مفقودةٌ ، وأمثالُهم في القلوبِ

موجودةٌ .

وقال رجلٌ للحسنِ : يا أبو سعيدٍ . فقال له : كَسِبُ الدُّوَانِقِ

شَغَلَكَ عن أن تقولَ : يا أبا سعيدٍ .

ثالثًا : أن تَنْظُرَ إلى ما بذَلَهُ السلفُ الصالحُ في سبيلِ تحصيلِ

هذا العلمِ :

قال ابن القاسم رحمه الله : أَفْضَى بِمَالِكَ طَلَبُ الْحَدِيثِ إِلَى أَنْ نَقُضَ سَقْفَ بَيْتِهِ ، فَبَاعَ خَشْبَهُ .

وهذا يخشى بن معين رحمه الله خَلَفَ لَهُ أَبُوهُ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَأَنْفَقَهَا كُلَّهَا عَلَى تَحْصِيلِ الْحَدِيثِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ نَعْلٌ يَلْبَسُهُ .

وقال سليمان العامري :

وَقَائِلَةٌ أَنْفَقَتْ فِي الْكُتُبِ مَا حَوَتْ

يَمِينُكَ مِنْ مَالٍ فَقُلْتُ : دَعِينِي

لَعَلِّي أَرَى فِيهَا كِتَابًا يَدُلُّنِي

لَاخُذْ كِتَابِي آمِنًا بِيَمِينِي

رابعاً : أن تعلم أن العلم الشرعي يفتح لك باب الرزق :

ففي الأثر : أن رجلاً دخل على عبد العزيز بن مَرْوَانَ يَشْكُو

صِهْرًا ، فَقَالَ : إِنْ خَتَنِي فَعَلَ كَذَا وَكَذَا . فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ : وَمَنْ

خَتَنَكَ ؟ قَالَ : الْخَتَّانُ الَّذِي يَخْتِنُ النَّاسَ . فَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ لَكِتَابِهِ :

وَيُحَكِّ ، بِمِ أَجَابَنِي ؟ فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّكَ لَخَتَّ ، وَهُوَ لَا

يَعْرِفُ اللَّحْنَ ، كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَقُولَ : مَنْ خَتَنَكَ ؟

فَاشْتَغَلَ عَبْدُ الْعَزِيزِ حَتَّى صَارَ مِنْ أَفْصَحِ النَّاسِ ، وَكَانَ يُعْطِي

على العربية ، وَيَحْرِمُ على اللحن ، فكان الرجلُ يَأْتِيهِ ، فيقولُ له :
 مَمَّنَ أنت ؟ فيقولُ : من بني فلان . فيقولُ لكَاتِبِهِ : أَعْطِهِ مائتَينِ
 دينارٍ . ودخَلَ عليه رجلٌ من بني عبدِ الدارِ ، فقال له : مَمَّنَ أنت ؟
 فقال : من بنو عبدِ الدارِ . فقال : تَجِدُهَا في جائزَتِكَ . فأَمَرَ له بمائةِ
 درهمٍ .

ويقولُ أبو يوسفَ تلميذُ الإمامِ أبي حنيفةَ رَحِمَهُمَا اللهُ : تُوفِّي

أبي إبراهيمُ بنُ حبيبٍ ، وخَلَفَنِي صَغِيرًا في حَجَرِ أُمِّي ، فَأَسْلَمَتْنِي
 إِلَى قَصَّارٍ أَخَذَهُ ، فَكُنْتُ أَدْعُ الْقَصَّارَ ، وَأَمُرُّ إِلَى حَلْقَةِ أَبِي حَنِيفَةَ ،
 فَأَجْلِسُ أَسْتَمِعُ ، فَكَانَتْ أُمِّي تَجِيءُ خَلْفِي إِلَى الْحَلْقَةِ ، فَتَأْخُذُ
 بِيَدِي ، وَتَذْهَبُ بِي إِلَى الْقَصَّارِ ، وَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ يُعْنِي بِي ؛ لَمَا يَرَى
 مِنْ حُضُورِي ، وَحِرْصِي عَلَى التَّعَلُّمِ ، فَلَمَّا كَثُرَ ذَلِكَ عَلَى أُمِّي ،
 وَطَالَ عَلَيْهَا هَرَبِي قَالَتْ لِأَبِي حَنِيفَةَ : مَا لِهَذَا الصَّبِيِّ فِسَادُ غَيْرُكَ ،
 هَذَا صَبِيٌّ يَتِيمٌ لَا شَيْءَ لَهُ ، وَإِنَّمَا أُطْعِمُهُ مِنْ مِغْزَلِي ، وَأَمَلُ أَنْ
 يَكْسِبَ دَانِقًا يَعُودُ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ . فَقَالَ لَهَا أَبُو حَنِيفَةَ : مُرِّي يَا
 رَغْنَاءُ ، هَذَا هُوَ ذَا يَتَعَلَّمُ أَكَلَ الْفَالُودَجِ بِذَهْنِ الْفُسْتُقِ . فَانْصَرَفَتْ
 عَنْهُ ، وَقَالَتْ لَهُ : أَنْتَ شَيْخٌ قَدْ خَرِفْتَ ، وَذَهَبَ عَقْلُكَ .

ثم لزمته ، فنفعني الله بالعلم ، ورفعني حتى تقلدت القضاء ،
وكنْتُ أجالِسُ الرشيدَ ، وآكُلُ مَعَهُ على مائدته ، فلمَّا كانت في
بعض الأيامِ قَدِمَ إليَّ هارونُ فالوذجةُ ، فقال لي هارونُ : يا يعقوبُ ،
كُلْ مِنْهُ ، فليس كلُّ يومٍ يُعْمَلُ لنا مثله . فقلتُ : وما هذه يا أميرَ
المؤمنين ؟ فقال : هذه فالوذجةُ بذهنِ الفُستقِ . فضحكْتُ . فقال
لي : ممَّ ضحكْتَ ؟ فقلتُ : خيرًا ، أبقَى اللهُ أميرَ المؤمنين . قال :
لُخِّبَرْنِي . وألحَّ عَلَيَّ ، فخبَّرْتُهُ بالقصةِ من أولها إلى آخرها ، فعجِبَ
من ذلك ، وقال : لعمري ، إن العلمَ ليرفعُ ، وينفعُ دينًا ودُنْيَا .
وترحَّم على أبي حنيفةً ، وقال : كان ينظرُ بعينِ عقله ما لا يراه بعينِ
رأيه .

خامسًا : أن تعلمَ أنك بحرصِكَ على طلبِ العلمِ الشرعيِّ
سيُكَفِّيك اللهُ سبحانه وتعالى ، ويُبارِكُ لك في رزقِكَ :

وهذا سفيانُ الثوريُّ رحمه الله يقولُ : لما أرَدْتُ أن أطلبَ العلمَ
قلتُ : يا ربُّ ، إنه لا بدَّ لي من معيشةٍ . ورأيتُ العلمَ يُدرِّسُ ،
فقلتُ : أفرِّغْ نفسي لطلبِهِ . قال : وسألتُ ربي الكفايةَ .

وعزم على طلب العلم حتى كفلت له والدته الإنفاق عليه ،
فقلت : يا بُنَيَّ ، اطلبِ العلمَ ، وأنا أكفيك بمِغْزَلِي .

فلما صدقت نيته رحمه الله ، وعزم بجِدٍّ على التحصيلِ ، يسَّرَ
اللهُ له أمرَ الطلبِ ، حتى أصبحَ أميرَ المؤمنين في الحديثِ .

سادساً : أن تعلمَ مقدارَ مجلسِ العلمِ الذي تتركُه ، وتفرِّطُ
فيه ، من أجلِ هذه الدنيا الفانية الزائلة عنك ، ولا محالة :

*** قال ﷺ :** « إذا مرَّزْتُم برياضِ الجنةِ ، فازتَعُوا » . قالوا : وما
رياضُ الجنةِ ؟ قال : « حِلَقُ الذُّكْرِ » .

*** وقال ﷺ :** « إن لله تبارك وتعالى ملائكةَ سَيَّارَةً مُضَلِّلَةً ،
يَتَّبَعُونَ مجالِسَ الذِّكْرِ ، فإذا وجدُوا مجلساً فيه ذِكْرٌ قَعَدُوا معهم ،
وحَفَّ بعضهم بعضاً بأجنتهم حتى يَمْلَأُوا ما بينهم وبينَ السماءِ
الدنيا ، فإذا تفرَّقوا عَرَجُوا ، وصَعِدُوا إلى السماءِ ، قال : فَيَسْأَلُهُمُ
اللهُ عزَّ وجلَّ ، وهو أعلمُ بهم : مِن أين جئْتُم ؟ فيقولون : جئنا من
عندِ عبادِ لك في الأرضِ ، يُسَبِّحُونَكَ ، وَيُكَبِّرُونَكَ ، وَيُهَلِّلُونَكَ ،
وَيَحْمَدُونَكَ ، وَيَسْأَلُونَكَ . قال : وماذا يَسْأَلُونِي ؟ قالوا :

يَسْأَلُونَكَ جَنَّتِكَ . قال : وهل رَأَوْا جَنَّتِي ؟ قالوا : لا ، أَيُّ رَبِّ .
 قال : فكيف لو رَأَوْا جَنَّتِي . قالوا : وَيَسْتَجِيرُونَكَ . قال : ومِمَّ
 يَسْتَجِيرُونَنِي ؟ قالوا : من نَارِكَ يَا رَبِّ . قال : وهل رَأَوْا نَارِي ؟
 قالوا : لا . قال : فكيف لو رَأَوْا نَارِي ؟ قالوا : وَيَسْتَغْفِرُونَكَ . قال :
 فيقولُ : قد غَفَرْتُ لَهُمْ ، فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا ، وَأَجْرْتُهُمْ مِمَّا
 اسْتَجَارُوا . قال : فيقولون : رَبِّ ، فيهم فلانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ ، إِنَّمَا مَرَّ
 فَجَلَسَ مَعَهُمْ . قال : فيقولُ : وله غَفَرْتُ ، هم القومُ لَا يَشْقَى بِهِمْ
 جَلِيسُهُمْ .

*** وقال ﷺ :** « مَا مِنْ قَوْمٍ يَجْتَمِعُونَ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ ،
 يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ ، وَيَتَذَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ
 الرَّحْمَةُ ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ » .
وقال سهل بن عبد الله التستري : مَنْ أَرَادَ النَّظَرَ إِلَى مَجَالِسِ
 الْأَنْبِيَاءِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ .

قال ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة ١ / ٣٩١ :

وهذا لأن العلماء خلفاء الرسل في أممهم ، ووارثوهم في علمهم ،

فمجالسهم مجالس خلافة النبوة . اهـ

سابعاً : أن تعلم أن الانصراف إلى الدنيا ، وترك تعلم العلم الشرعي نوع من الدُّنُو والنزول إلى الشُّفْلِ :

فلقد وصف الله سبحانه في كتابه ، عباده في هذه الدنيا أتم وصف ، فوصفهم عز وجل بالانخراط في الدنيا ، وإهمال تعلم شرع الله ، والعمل به ، فقال سبحانه : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٣] .

ففي أمور الآخرة القلوب مُنْغَمِرَةٌ عنها ، وأما أعمال الدنيا الدنيئة فهم لها عاملون .

وأما السبب الثالث من أسباب ترك طلب العلم فهو : ما يُلاقِيه بعض الطلبة من المشقة في طلب العلم ؛ سواء في ذلك المشقة البدنية ، أو المشقة الذهنية .

فالمشقة البدنية كأن يكون مكان الدرس بعيداً عنه جداً ، فيشق عليه الذهاب إليه ، وكأن يكون موعد الدرس غير مناسب له ، فيكون مثلاً متأخراً ، ولو حضر الدرس لم يجد مواصلة تَعْيِده إلى

بيته ، أو أعادته إليه متأخراً ... إلى غير ذلك من أنواع المشقات البدنية التي يُلاقِيها طالب العلم .
 والمشقة الذهنية كأن يكونَ عند الطالبِ صعوبةٌ في فهمِ مادةٍ شرعيةٍ معينة ؛ وذلك كعلمِ النحو الذي يُعاني من صعوبةٍ فهمه أكثرُ الطلبة .

وأنا أقولُ في الجوابِ عن هذا :

أولاً : لتَعْلَمَ - أخي طالب العلم - أن المشقة في تحصيل العلم هي أمرٌ كونيٌّ ، وسنةٌ كونيةٌ لا بدُّ منها ، فطلبُ العلمِ قرينُ المشقة ، والمشقة قرينةُ طلبِ العلم ، لا يَفْتَرِقَانِ أبداً ، فالقاعدةُ العريضةُ التي لا استثناءَ فيها : أنه لا يُسْتَطَاعُ العلمُ براحةِ الجسدِ ، وأن مَنْ طَلَبَ العلمَ سَهرَ الليالي ، وأن العلمَ لن يُعْطِيَكَ بعضَه حتى تُعْطِيَه كُلَّكَ ، وأن مَنْ طَلَبَ الراحةَ بالعلمِ تَرَكَ الراحةَ البدنيةَ ، وانظُرْ إلى ما يلي من الآثارِ عن سلفِنا الصالحِ في ذلك :

قال الأضَمَعِيُّ : مَنْ لَمْ يَحْتَمِلْ ذُلَّ التَّعْلُمِ سَاعَةً بَقِيَ فِي ذُلِّ الْجَهْلِ أَبَداً .

وعن بعض السلف قال : مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى ذُلِّ التَّعَلُّمِ بَقِيَ عُمُرُهُ فِي عَمَايَةِ الْجَهَالَةِ ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَيْهِ آلَ أَمْرِهِ إِلَى عِزِّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى : تَأَمَّلْتُ عَجَبًا ، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ نَفِيسٍ خَطِيرٍ يَطُولُ طَرِيقُهُ ، وَيَكْثُرُ التَّعَبُ فِي تَحْصِيلِهِ ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ لَمَّا كَانَ أَشْرَفَ الْأَشْيَاءِ ، لَمْ يَخْصُلْ إِلَّا بِالتَّعَبِ ، وَالسَّهْرِ ، وَالتَّكْرَارِ ، وَهَجْرِ اللَّذَاتِ وَالرَّاحَةِ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ : بَقِيْتُ سَنِينَ أَشْتَهِي الْهَرِيسَةَ لَا أَقْدِرُ ؛ لِأَنَّ وَقْتَ بَيْعِهَا وَقْتُ سَمَاعِ الدَّرْسِ . اهـ

وقد أحسن القائل في ذلك :

فَقُلْ لِمُرَجِّي مَعَالِي الْأُمُورِ

بَغَيْرِ اجْتِهَادٍ رَجَوْتَ الْمُحَالَ

وقال مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ : قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ : لَا يُنَالُ

الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ .

وقد قيل : مَنْ طَلَبَ الرَّاحَةَ تَرَكَ الرَّاحَةَ .

وقال الشاعر :

فيا واصلَ الحبيبِ أَمَا إِلَيْهِ
بغيرِ مشقةٍ أبداً طريقُ
لا تَحْسَبِ المجدَ تمرًا أنتَ آكلُهُ

لن تَبْلُغَ المجدَ حتى تَلْعَقَ الصَّبْرَا
ولقد كان أهلُ العلمِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - يُلاقُونَ

المصاعِبَ والشدائدَ في تحصيلِهِم للعلمِ ، نصَحَ الإمامُ ابنُ هشامٍ
النحويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، صاحبُ كتابِ القطرِ والمُغْنِي وغيرِهِما ، طلبةَ
العلمِ بالصبرِ على مَشَاقِّ العلمِ والتحصيلِ ؛ إذ هو شرطٌ في نيلِ
المرادِ العزيزِ الغالي ، فيقولُ :

وَمَنْ يَضْطَبِرُ للعلمِ يَظْفَرُ بِنَيْلِهِ
وَمَنْ يَخْطُبُ الحسَناءَ يَصْبِرُ على البَذْلِ
وَمَنْ لَمْ يُذِلُّ النفسَ في طلبِ العُلَى

يسيرًا يَعِشُ دهرًا طويلًا أخا ذُلٍّ
وَمَنْ لَمْ يَذُقْ مُرَّ التعلُّمِ ساعةً
تَجَرَّعَ ذُلَّ الجَهِلِ طولَ خِيَاتِهِ

وأنا أذكرُ عن نفسي - أي : أبي أنس - أنني في بداية طلب العلم مكثتُ ما يقربُ من سنة أعاني من صعوبة شديدة في فهم علم النحو ، ومع ذلك كنتُ أحرصُ على حضورِ درسه ، حتى منَّ الله عليَّ بالفهم ، فالحمدُ لله على إنعامه .

فعليك يا طالب العلم أن تجدَّ في التحصيل ؛ فإن الأمر كما قال ابنُ الجنيِّد : ما طلبَ أحدٌ شيئاً بجِدٍّ وصدقٍ إلا ناله ، فإن لم يتَّله كله نال بعضه .

ولقد كان العلامة محمود شكري الألوسي البغدادي الحفيدُ يمتازُ بالجِدِّ الشديد ، والحرصِ على الوقت ، فكان لا يثنيه عن دروسه حمارة القيظ ، ولا يؤخره عنها قرصُ برد الشتاء ، وكثيراً ما تعرَّض تلاميذه بسبب تأخيرهم عن موعدِ الدرسِ إلى النقدِ والتعنيف ، قال عنه تلميذه العلامة بهجة الأثرى : أذكرُ أنني انقطعتُ عن حضورِ درسه في يومٍ مُزعج ، شديد الريح ، غزير المطر ، كثير الوخل ؛ ظناً مني أنه لا يحضرُ إلى المدرسة ، فلمَّا شخَّصتُ في اليوم الثاني إلى الدرس ، صار يُنشدُ بلهجة غضبان :
*** ولا خيرَ فيمن عاقه الحرُّ والبرد ***

ثانيًا : لَتَعْلَمَ أَخِي طَالِبَ الْعِلْمِ أَنَّهُ ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ هَذِهِ الْمَرَارَةِ ،
وَهَذَا التَّعَبِ الَّذِي تَجِدُهُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، إِلَّا أَنْ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَدْ
مَزَجَ هَذِهِ الْمَرَارَةَ بِحَلَاوَةٍ وَلَذَةٍ لَا تَجِدُهَا إِلَّا فِي السَّعْيِ لَطَلَبِ الْعِلْمِ ،
وَاسْمَعْ إِلَى مَا يَقُولُهُ عُلَمَاءُ السَّلَفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ :
قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : سَمِعْتُ الْمُزَنِّيَّ يَقُولُ : قِيلَ لِلشَّافِعِيِّ :
كَيْفَ شَهَوْتُكَ لِلْعِلْمِ ؟ قَالَ : أَسْمَعُ بِالْحَرْفِ - أَيْ : بِالْكَلِمَةِ - مِمَّا
لَمْ أَسْمَعْهُ ، فَتَوَدُّ أَعْضَائِي أَنْ لَهَا أَسْمَاعًا تَتَنَعَّمُ بِهِ مَا تَنَعَّمَتِ
الْأُذُنَانِ .

فَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ حَرَصُكَ عَلَيْهِ ؟

قَالَ : حَرَصُ الْجَمُوعِ الْمَنُوعِ فِي بُلُوغِ لَذَتِهِ لِلْمَالِ .

فَقِيلَ لَهُ : فَكَيْفَ طَلَبُكَ لَهُ ؟

قَالَ : طَلَبُ الْمَرَأَةِ الْمُضَلَّلَةِ وَلَدَهَا ، لَيْسَ لَهَا غَيْرُهُ .

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَاصِفًا تَلَذُّذَ الْعُلَمَاءِ بِإِيقَاطِ

لَيْلِهِمْ ، وَطَوِيلِ سَهْرِهِمْ :

سَهْرِي لَتَنْقِيحِ الْعُلُومِ أَلَدُّ لِي

مِنْ وَضَلِ غَانِيَةٌ وَطِيبَ غَنَاقِ

وتمايلي طرباً لحل عويصة
 أشهى وأحلى من مُدامة ساقِي
 وصريز أعلامي على أوراقها
 أحلى من الدوكاء والعُشاقِ
 وألذ من نقر الفتاة لدُفها
 نقرى لألقي الرَّمْلَ عن أوراقِي
 أبيتُ سهرانَ الدجى وتبيته
 نومًا وتبغني بعد ذاك لحاقي ؟ !
 وبهذا ينتهي ما أردتُ بيانه ، والله أسأل أن يجعلَ في هذه
 الكلماتِ النفع ، وأن تكونَ حافزًا لإخواني في تحصيلِ العلمِ
 الشرعي .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أبو أنس أشرف بن يوسف

٣٧١٤٢٥٨٣ - ٣٧١٢١٣٩١

ذم

الللحن في الكلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٧٠ - ٧١] .

أما بعد : فهذه كلمة يسيرة في ذم اللحن في الكلام ، جَمَعْتُهَا من كلام السلفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ ، أُبَيِّنُ فيها كيف كان سلفنا الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى ، يَسْتَغْظِمُونَ أمرَ اللحنِ ، حتى إنهم كانوا يَعُدُّونه ذنبًا من الذنوبِ ، وهدفي من هذه الكلمة أن يعودَ الناسُ إلى سيرة سلفهم الصالح من الاهتمام بتعلُّمِ علمِ النحو ، بدلًا من هذا الهجر له الذي بات سِمَةً عامةً للمسلمين .

إخواني في الله ، إن اللحنَ في الكلام قد بلغتَ مَعَايِيهِ عَنَانَ السماءِ ، وإليك أخي في الله بعضُ هذه المعايير :
١- اللحنُ ذنبٌ من الذنوبِ :

في مُعْجَمِ الْأَدْبَاءِ لِلْحَمَوِيِّ ، عن الخليل بن أحمد قال :
 سَمِعْتُ أَيُّوبَ السَّخْتِيَّانِيَّ يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ ، فَلَحَنَ فِيهِ ، فَقَالَ :
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ . يعني : أنه عَدَّ اللحنَ ذنبًا .

وقال ابنُ فارس في كتابه « الصَّاحِبِيُّ فِي فِقْهِ الْلُغَةِ » : وقد كان الناسُ قديمًا يَجْتَنِبُونَ اللحنَ فيما يَكْتُبُونَهُ ، أو يَقْرَأُونَهُ اجْتِنَابَهُمْ بعضُ الذنوبِ . اهـ

٢- اللحن عيبٌ وقدحٌ في الإنسانِ ، وإن كان شريفاً ، وفي المقابل : عدمُ اللحنِ رفعةٌ وجمالٌ وعِزٌّ لصاحبه ، وإن كان مهيناً :
عن سعيد بن سَلم قال : دخلْتُ على الرشيدِ ، فبهَرَنِي هيبَةٌ وجمالاً ، فلمَّا لَحَنَ خَفْتُ في عيني .
وعلى هذا قولُ الشاعرِ :

يُعْجِبُنِي زِيُّ الْفَتَى وَجَمَالُهُ
فَيَسْقُطُ مِنْ عَيْنِي سَاعَةً يَلْحَنُ
وقال الآخرُ :

لَحْنُ الشَّرِيفِ يُزِيلُهُ عَنْ قَدْرِهِ
وَتَرَاهُ يَسْقُطُ مِنْ لِحَاطِ الْأَعْيُنِ
وقال الآخرُ :

كَمْ وَضِيعَ رَفَعَ النُّحُوْ وَكَمْ
مِنْ شَرِيفٍ قَدْ رَأَيْنَاهُ وَضَعَ
وقال الآخرُ :

كَفَى بِالْمَرْءِ عَيْبًا أَنْ تَرَاهُ
لَهُ وَجْهٌ وَلَيْسَ لَهُ لِسَانٌ

وما حُسِّنَ الرجالِ لهم بزَيْنِ

إذا لم يُشْعِدِ الحُسْنَ البيانُ

وقال سماحة الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله : ابتعد عن اللحن في اللفظ والكُتُب ؛ فإن عدم اللحن جلاله ، وصفاء ذوق ، ووقوف على ملاح المعاني ؛ لسلامة المباني .

وقال عبد الملك بن مَرْوَانَ : الإعرابُ جمالٌ للوضع ، واللحنُ هُجْنَةٌ على الشريف .

٣- اللحنُ كذبٌ على الرسول ﷺ ، إذا حَدَّثَتْ عنه باللحن ، وكذبٌ كذلك عمن تُحَدِّثُ عنه من العلماء :

قال الأصمعي رحمه الله : إن أخوف ما أخافُ على طالب العلم - إذا لم يَعْرِفِ النحو - أن يَدْخُلَ في جملةِ قوله ﷺ : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

وقال حمادُ بنُ سلمةَ لإنسانٍ : إن لَحَنْتَ في حديثي فقد كَذَبْتَ عَلَيَّ ؛ فإني لا أَلْحَنُ .

٤- اللحنُ إحالةٌ للمعنى عن المرادِ به :

قال الرَّخْبِيُّ : سَمِعْتُ بعضَ أصحابنا يقولُ : إذا كَتَبَ لَجَّانٌ ،

فَكَتَبَ عَنِ اللَّحَنِ لَحْنًا آخَرَ ، فَكَتَبَ عَنِ اللَّحَنِ لَحْنًا آخَرَ ، صَارَ الْحَدِيثُ بِالْفَارْسِيَّةِ .

ويزوي عن أبي الأسود الدؤلي ، أن ابنته قالت له : ما أحسنُ السماء^(١) . فقال لها : نجومُها^(٢) . فقالت : إني لم أَرِدْ هذا ، وإنما تَعَجَّبْتُ مِنْ حُسْنِهَا . فقال لها : إذن فقولي : ما أحسنَ السماء .

٥- اللحنُ داءٌ عضالٌ ، ومرضٌ فتاكٌ :

قال عبدُ اللهِ بنُ المباركٍ رحمه الله : اللحنُ في الكلامِ أقبحُ من آثارِ الجُدريِّ في الوجهِ .

وقال عبدُ الملكِ بنُ مَروانَ : اللحنُ في الكلامِ أقبحُ من التفتيقِ في الثوبِ ، والجُدريُّ في الوجهِ .

٦- الذي يلحنُ يَسْتَحِقُّ التَّأْدِيبَ وَالضَّرْبَ وَالانْتِهَارَ :

رَوَى ابنُ أبي شَيْبَةَ فِي مُصَنَّفِهِ ، وَالْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي كِتَابِهِ : « الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاويِ وَآدَابِ السَّامِعِ » ، عَنْ ابْنِ عَمَرَ ، وَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّهُمَا كَانَا يَضْرِبَانِ

(١) برفع « أحسن » ، وجر « السماء » .

(٢) ظَنَّا مِنْهُ أَنَّهَا تَسْتَفْسِرُ عَنْ مَوَاطِنِ الْحَسَنِ فِيهَا .

أولادهما على اللحن .

وروى الخطيبُ البغداديُّ رحمه الله في نفس الكتابِ ، عن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، أنه كان يضربُ الحسنَ والحسينَ على اللحنِ .

وفي معجم الأدباءِ للحمويِّ ، قال : وكان عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه يضربُ أولاده على اللحنِ ، ولا يضربُهم على الخطأ . **وفيه أيضًا :** وقد كان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ أشدَّ الناسِ في اللحنِ على ولده وخاصَّته ورعيته ، وربما أدبَ عليه .

ولقد كان الإمامُ أحمدُ رحمه الله يؤدِّبُ أولاده على اللحنِ ، وقد ضربَ ابنته زينبَ ، وانتَهَرها على اللحنِ .

وروي أن أحدَ ولادةِ عمرَ رضي الله عنه كتَبَ إليه كتابًا لحنَ فيه ، فكتَبَ إليه عمرُ أن قنَّعَ كاتبك سوطًا .

٧- اللحنُ سببٌ لمنع الرزقِ :

ففي الأثرِ ، أنه دَخَلَ على عبدِ العزيزِ بنِ مَرْوانَ رجلٌ يشكو صِهْرًا ، فقال : إن خَتَنِي فَعَلَ كذا وكذا . فقال له عبدُ العزيزِ : ومَنْ

خَتَنَكَ؟ قال : الخَتَانُ الذي يَخْتِنُ الناسَ . فقال عبدُ العزيزِ لكَاتِبِهِ : ويَحَكَ ، بِمَ أَجَابَنِي ؟ فقال : أَيُّهَا الأَمِيرُ ، إِنَّكَ لَخَنَتَ ، وهو لا يَعْرِفُ اللحنَ ، كانَ يَنْبَغِي أن تقولَ : مَنْ خَتَنَكَ ؟ فاشتغلَ عبدُ العزيزِ حتى صارَ من أفصحِ الناسِ ، وكانَ يُعْطِي على العربيةِ ، وَيَحْرِمُ على اللحنِ ، فكانَ الرجلُ يَأْتِيهِ ، فيقولُ له : مِمَّنْ أَنْتَ ؟ فيقولُ : من بني فلانٍ . فيقولُ لكَاتِبِهِ : أَعْطِهِ مائَتَيْ دينارٍ . ودخلَ عليه رجلٌ من عبدِ الدارِ ، فقال له : مِمَّنْ أَنْتَ ؟ فقال : من بنو عبدِ الدارِ . فقال : تَجِدُهَا في جائزَتِكَ .

فأَمَرَ له بمائَةِ درهمٍ .

وفي الأثرِ أيضًا : أن أحدَ وُلاةِ عمرَ رضي اللهُ عنه كَتَبَ إليه كتابًا لحنَ فيه ، فكَتَبَ إليه عمرُ أن قَنَعَ كاتِبَكَ سوطًا ، وأخِرَ عطاءَهُ سنةً . وفي روايةٍ عنه أنه قال : واغزِلْهُ عن عَمَلِكَ .

٨- اللحنُ يَخْفِضُ مِنْ مَقَامِ صاحِبِهِ في الدنيا والآخرة :

يقولُ سالمُ بنُ قُتَيْبَةَ : كُنْتُ عندَ ابنِ هُبَيْرَةَ الأكبرِ ، فَجَرَى الحديثُ ، حتى جَرَى ذِكرُ العربيةِ ، فقال : واللهِ ما اسْتَوَى رجلانِ ، دِينُهُما واحدٌ ، وَحَسَبُهُما واحدٌ ، ومُرُوءَتُهُما واحدةٌ ، أحَدُهُما يَلْحَنُ ،

والآخر لا يُلْحَنُ ، إن أفضلهما في الدنيا والآخرة الذي لا يُلْحَنُ .
 قُلْتُ : أَصْلَحَ اللهُ الأميرَ ، هذا أفضلُ في الدنيا لفضلِ فصاحتهِ
 وعربيتهِ ، أَرَأَيْتَ الآخرةَ ، ما باله فَضِّلَ فيها ؟
قال : إنه يَقْرَأُ كتابَ اللهِ على ما أنزله اللهُ ، وإن الذي يُلْحَنُ
 يَحْمِلُهُ لحنه على أن يُدْخَلَ في كتابِ اللهِ ما ليس فيه ، ويُخْرِجُ منه
 ما هو فيه .

قال : قُلْتُ : صدَقَ الأميرُ ، وبرَّ .

٩- أن الذي يُلْحَنُ موصوفٌ وموسومٌ بالجهل :

قال الشاعر عبد الرحمن العشماوي :

يُلْقِي على المرفوعِ صخرةً جهله

فَيَصِيرُ تحتَ لسانِهِ مجرورًا

١٠- اللحنُ يَضُرُّ الناسَ عن أخذِ العلمِ من صاحبه ، وفي

المقابلِ عدمُ اللحنِ دعوةٌ لقبولِ كلامِ صاحبه :

فكم من رجلٍ تُركَ من أجلِ لحنه في اللغةِ العربيةِ ، وكان هذا

عيًّا وقدحًا فيه .

فكثير من الخطباء يخرج إلى الناس بموضوع مُتميّز مؤثّر ذي قيمة كبيرة للسامع والمتابع ، ويحشد له من الأدلة ، ومن الأمثلة الشيء الكثير ، ولكنه يقع في اللحن والخطأ عندما يلقي خطبته ، فيصرف كثيرا من السامعين عن متابعتها ، ويكون لحنه أشبه بالداء الذي تطرق إلى ذلك الطعام الجيد المُميّز فأفسده ، ومنع الاستفادة منه .

فكم هو من الشنيع وغير المقبول : أن يتطرق اللحن إلى لسان الإنسان عندما يتحدّث باللغة العربية ، ولقد كان الخلفاء والأمراء والخطباء والعلماء أشد ما يتخوفون أن يقع الواحد منهم في اللحن في الكلام ، فكان تخوّفهم من اللحن في الكلام أشد من تخوّفهم من الخطأ في موضوع الخطبة .

فها هو عبد الملك بن مروان أشهر خلفاء بني أمية يخشى اللحن ، ويتجنّبهُ ، ويقول في ذلك : شيبني ارتقاء المنابر واتقاء اللحن .

وهذا أيضا الحجاج كان يتوخى ألا يُسمع منه لحن في كلام أبداً ، فهو أفصح الناس في زمانه ، وعندما يبلغه أن ابن يعمر وقع على لحن له في كتاب الله عز وجل يُعالج الأمر بطريقته الحجاجية ،

فَيَنْفِيهِ مِنْ بَغْدَادَ ، وَيُلْحِقُهُ بِخُرَاسَانَ قَائِلًا : لَا جَرَمَ ، لَا تَسْمَعُ لِي لَحْنًا أَبَدًا .

وما من شك : أنه إذا استطاع الإنسان أن يَتَحَدَّثَ بهذه اللغة مُجَوِّدًا بِهَا أَسْلُوبَهُ ، بَعِيدًا عَنِ اللَّحَنِ ، وَعَنِ الْخَطَلِ وَالْخَلَلِ فِيهَا قَدَرُ مَا يَسْتَطِيعُ فَإِنَّهُ بِهَذَا سَيَأْسِرُ الْأَلْبَابَ ، وَسَيَجْعَلُ السَّامِعِينَ يَنْصَرِفُونَ إِلَى مَا يَقُولُ ، بَدَلًا عَنْ أَنْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُ .

ومن هنا تأتي أهمية تعلّم هذه القواعد وهذا العلم ، ولذلك فَإِنِّي أَدْعُو كَمَا يَدْعُو كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى ضَرُورَةِ أَنْ يَتَخَصَّصَ أَنَاسٌ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ فِي عِلْمِ النُّحُوِّ حَتَّى يَتَلَفَّحُوا فِيهِ الذُّرْوَةَ ، خَاصَّةً فِي هَذَا الْوَقْتِ الَّذِي أَصْبَحَتِ الْعَرَبِيَّةُ فِيهِ تُعَانِي مِنْ هَجْمَةٍ شَرِسَةٍ مِنَ الزَّنَادِقَةِ وَالْمُلْحِدِينَ ، وَتُعَانِي مِنْ تَضَاوُلِ الْإِهْتِمَامِ بِهَا ، وَمِنْ انْتِشَارِ الْعَامِيَّةِ ، وَمِنْ انْصِرَافِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى الْحَدِيثِ بِغَيْرِهَا .

إِنَّ كُلَّ هَذَا بَلَاءٌ شَكٌّ يَسْتَدْعِي مَزِيدًا مِنَ الْإِهْتِمَامِ ، وَالْإِنْصِرَافِ إِلَى تَعَلُّمِ قَوَاعِدِ هَذِهِ اللُّغَةِ الْكَرِيمَةِ .

١١ - اللَّحَانُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُدْعَى عَلَيْهِ :

لَقَدْ بَلَغَ أَمْرُ عَظَمِ اللَّحَنِ عِنْدَ السَّلَفِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ عَلَى مَنْ

لَحَنَ بِحَضْرَتِهِمْ ، ففي الأثرِ الواردِ في معجمِ الأدباءِ للحموي ، عن عمرو بن أبي عمرو الشَّيباني ، عن أبيه ، قال : تكلَّم أبو جعفر المنصورُ في مجلسٍ ، فيه أعرابيٌّ ، فلحنَ ، فصَرَ الأعرابيُّ أذُنَيْهِ - يعني : نصَّبَهَا للاستماعِ - فلحنَ مرةً أخرى أعظمَ من الأولى ، فقال الأعرابيُّ : أُمَّ لَهَذَا ، ما هذا ؟ ثم تكلَّم ، فلحنَ الثالثةً ، فقال الأعرابيُّ : أَشْهَدُ لَقَدْ وُلِّيتَ هَذَا الأَمْرَ بقضاءٍ وَقَدَرٍ .

وفي معجمِ الأدباءِ للحموي أيضًا ، عن الضَّحَّاكِ بنِ زَمَلٍ الشَّكْسَكِيِّ ، وكان من أصحابِ المنصورِ ، قال : كنا مع سليمان ابنِ عبدِ الملكِ بدابقٍ ، إذ قام إليه الشَّحَّاجُ الأزديُّ الموصليُّ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنَّ أبينا هَلَكَ ، وتركَ مالَ كثيرٍ ، فوثَبَ أخانا على مالِ أبانا ، فأخَذَهُ . فقال سليمانُ : فلا رَجِمَ اللهُ أباك ، ولا نَيْحَ عظامٍ ^(١) أخيك ، ولا بَارَكَ لَكَ فيما وَرِثْتَ ، أَخْرِجُوا هَذَا اللَّحَّانَ عني . فأخَذَ بيده بعضُ الشَّاكِرِيَّةِ ، وقال : قُمْ ، فقد آذَيْتَ أميرَ المؤمنين . وانظر في ذلك أيضًا أثرُ الحَجَّاجِ الآتِي ص ٦٢ ، ٦٣ .

(١) يقال : نَيْحَ اللهُ عَظْمَهُ : شَدَّهُ ، وَصَلَّبَهُ .

١٢ - اللحنُ قد يُؤدِّي إلى الكفر من حيث لا يشعُر اللحانُ :

ففي الأثر أن عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه قال : تعلّموا

النحو ؛ فإن بني إسرائيل كفّروا بحرفٍ واحدٍ ، كان في الإنجيل مسطورًا ، وهو : أنا ولدتُ عيسى . بتشديد اللام ، فحقّقوه ، فكفّروا .

ويُروى أيضًا : أنه قدِمَ أعرابيٌّ في خلافةِ أمير المؤمنين عمرَ بن

الخطابِ رضي الله عنه ، فقال : مَنْ يُقرئني شيئًا مما أنزلَ الله تعالى

على محمدٍ ﷺ ؟ فأقرّاه رجلٌ سورةَ « براءة » ، فقال : (أن الله

بريءٌ من المشركين ورسوله) . بالجُرّ ، فقال الأعرابيُّ : أو قد برئَ

الله من رسوله ؟ إن يكنِ الله تعالى برئاً من رسوله فأنا أبرأ منه .

فبلغَ عمرَ رضي الله عنه مقالةُ الأعرابيِّ ، فدعاه ، فقال : يا

أعرابيُّ ، أتبرأ من رسولِ الله ﷺ ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إني

قدِمْتُ المدينةَ ، ولا عِلْمَ لي بالقرآنِ ، فسألتُ مَنْ يُقرئني ؟ فأقرّاني

هذا سورةَ « براءة » ، فقال : (أن الله بريءٌ من المشركين

ورسوله) . فقلتُ : أو قد برئَ الله تعالى من رسوله ؟ إن يكنِ الله

تعالى بَرِيءٌ من رَسُولِهِ فَأَنَا أَبْرَأُ مِنْهُ .

فقال عمر رضي الله عنه: ليس هكذا يا أعرابي . فقال : كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ﴿ أَنْ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة: ٣] . فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ مما من بَرِيءِ الله ورسوله منهم .

فأمَرَ عمر رضي الله عنه ألا يُقْرَأَ القرآن إلا عالمٌ باللغة .
وانتبه - أخى في الله - كيف كان اللحن سبباً في المنع من إقراء القرآن الغير ، وهذه آفة أخرى من آفات اللحن تأخذها من هذا الأثر .

١٣ - اللحن ضلال :

فقد روى الحاكم في مستدركه ٢ / ٤٧٧ ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يُخرجاه . ووافقه الذهبي ، أن رجلاً لحن بحضرة النبي ﷺ ، فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » .

١٤ - اللحن في قراءة القرآن أسوأ من أن تُسقط آية من قراءتك :

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لَأَنْ أَقْرَأَ فَأُسْقِطَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ فَأَلْحَنَ .

١٥- اللحن سبب للإعراض عن صاحبه :

ففي مُعْجَمِ الْأَدْبَاءِ لِلْحَمَوِيِّ أَنَّ رجلاً قَرَعَ الْبَابَ عَلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، وَقَالَ : يَا أَبُو سَعِيدٍ . فَلَمْ يُجِبْهُ ، فَقَالَ : أَبِي سَعِيدٌ . فَقَالَ الْحَسَنُ : قُلِ الثَّالِثَةَ وَادْخُلْ .

١٦- اللحن أشد من الخطأ في الرمي أثناء التدريب على

الجهاد :

ففي الْأَثَرِ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ يُسَيِّئُونَ الرَّمِيَّ ، فَقَرَعَهُمْ ، فَقَالُوا : إِنَّا قَوْمٌ (مُتَعَلِّمِينَ) . فَأَعْرَضَ مُغَضَّبًا ، وَقَالَ : وَاللَّهِ لَخَطَّوْكُمْ فِي لِسَانِكُمْ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ خَطِئِكُمْ فِي رَمْيِكُمْ .

١٧- اللحن يشتحق الطرد من المجلس الذي لحن فيه :

قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ : بَعَثَ الْحَجَّاجُ إِلَى وَالِي الْبَصْرَةِ أَنْ اخْتَرْ لِي عَشْرَةً مِنْ عِنْدِكَ . فَاخْتَارَ رَجَالًا ، مِنْهُمْ كَثِيرُ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ ،

قال : وكان رجلاً عريئاً . قال كثيرٌ : فقلتُ في نفسي : لا أُفِلْتُ من الحجاجِ إلا باللحنِ . قال : فلمَّا أُدْخِلْنَا عليه دعاني ، فقال : ما اسمُك ؟ قلتُ : كثير . قال : ابنُ مَنْ ؟ فقلتُ : إن قلتُها بالواوِ لم آمنَ أن يتجاوزَها . قال : أنا ابنُ أبا كثير . فقال : عليك لعنةُ الله ، وعلى مَنْ بعثَ بك ، جيئوا في قفاه . قال : فأخرجتُ .

وقد تقدّم بنا في هذا أيضاً أثرُ سليمانَ بن عبد الملك

فإذا كان اللحنُ - إخواني في الله - بهذه المكانة ، فحريٌّ بكلِّ مسلمٍ أن يتَّقِيَ اللحنَ في كلامِهِ قَدْرَ ما يَسْتَطِيعُ ، واللهُ أسألُ أن يَنْفَعَ بهذه الكلماتِ .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

أبو أنس أشرف بن

يوسف بن حسن

٣٧١٤٢٥٨٣ - ٣٧١٢١٣٩١

